مقتل
هُدْبةَ بنِ خَشرم
و
زيادةَ بنِ زيد

obeikandl.com

obeikandl.com

ترجمتهما[١]

أما أولهما فهو هُدبة بن خَشْرم بن كرز بن أبي حية بن الكاهن بن أسحم بن عامر بن ثعلبة، من عُذرة كان شاعراً فصيحاً من بادية الحجاز، راويةً للأشعار، وكان له ثلاثة أخوة كلهم شاعر: حوط وسيحان والواسع، وكانت حياته زمن خلافة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما الآخر فهو زيادة بن زيد بن مالك بن عامر بن قرة بن عمرو بن عبدالله بن ثعلبة بن ذبيان بن الحارث، من بني رقاش.

مقتلهما بسبب قصائدهما:

تصاحب هدبة بن خشرم يوماً مع (زيادة بن زيد) وهما مقبلان من الشام في ركب من قومهما، فكانا يتعاقبان السوق بالإبل، وكان مع هُدبة أخته فاطمة، فنزل زيادة فارتجز وقال:

عوجي علينا واربعي يا فاطما
ما دون أن يُرى البعير قائما

ألا ترين الدمع مني ساجما
حذار دار منك لن تلائما[٢]

---

(١) انظرها موسعة في : معجم الشعراء للمرزباني (٤٨٣)، وأسماء المغتالين، لأبي جفعر بن حبيب (نشره عبد السلام هارون في نوادر المخطوطات، المجلد الثاني)، والأغاني (٢١/٢٧٧-٢٩٨)، والشعر (ص ٤١٦).

(٢) أي ما بين مناخ البعير إلى قيامه.

فـعـرَّجت مطرداً عـراهمـا
فـعْمـاً يبـذ القُطف الرواسـما[١]

كـأن في المثناة منه عـائمـاً
إنك والله لأن تبـاغـمـا[٢]

خـوداً كـأن البـوصي والمآكـما
منها نقـاً مـخـالطٌ حـرائمـا[٣]

خيـرٌ من استـقبالك السمائما
ومن منادٍ يبـتـغي علاكـمـا[٤]

فغضب هدبة حين سمع هذا الرجز من زيادة في أخته، فنزل وارتجز بأخت زيادة!، وكانت تدعى أم حازم، فقال:

لقـد أراني والغـلام الحـازمـا
نزجي المطي ضُـمَّـراً سـواهمـا

من تظنُ القلص الرواسـمـا
والجلة الناجيـة العـياهمـا[٥]

(١) مطرد: أي متتابع السير. وعراهم: شديد، وفعم: ضخم . الرواسم: الإبل التي تسير سيراً فوق العَنقَ.
(٢) المثناة: الزمام. وعائم: سائح . وتباغم: تكلم.
(٣) البوصي: العجز. والمأكمتان: ما على يمين العجز وشماله، والنقا: ما عظم من الرمل. والصرائم: دونه في العِظَم.
(٤) العلاكم: الشديد الصلب.
(٥) العياهم : الشداد.

يبلغن أم حـــازم وحـــازمـــاً
إذا هبطن مستحيراً قاتماً[١]

ورجع الحادي لها الهماهما
ألا ترين الحُـــزن مني دائمـــاً

حـــذار دار منك لن تلائمـــا
والله لا يشفي الفؤاد الهائما

تمســـاحل اللبـــات والمآكـــما
ولا اللمـــام دون أن تلازمـــا

ولا اللثـــام دون أن تفـــاقـــما
ولا الفـقـام دون أن تُفـاغـمـا[٢]

وتعلو القوائم القوائما

فلما سمع زيادة هذا الرجز شتم هدبة وسبه، فرد عليه هدبة السب. فصاح بهما القوم: اركبا لا حملكما الله! فإنَّا قومٌ حجاج، وخشوا أن يقع بينهما شر، ووعظوهما؛ حتى أمسك كل واحد منهما على ما في نفسه. وهدبة أشدهما حَنَقاً؛ لأنه رأى أن زيادة قد ضامه؛ لأنه رجز بأخته وهي تسمع قوله، ورجز هو بأخت زيادة وهي غائبة لا تسمع قوله، فمضيا ولم يتحاورا بكلمة؛ حتى قضيا حجهما ورجعا إلى عشائرهما.

(١) المستحير: الطريق الذي يأخذ في عرض مفازة ولا يدري أين منفذه.
(٢) الفقام : النكاح. والفغام: التقبيل.

obeikandl.com

ثم التقى نفر من بني عامر من رهط هدبة، فيهم أبوجبر، وهو رئيسهم الذي لا يعصونه، وخشرم أبو هدبة، وزفر عم هدبة، وهو الذي بعث الشر وحجاج بن سلامة، وهو أبوناشب، ونفر من بني رقاش رهط زيادة، وفيهم زيادة بن زيد، وإخوته: عبدالرحمن ونفاع وأدرع بواد من أودية حرتهم، فكان بينهم كلام، فغضب ابنا الغسانية، وهما أدرع وأبوجبر، وكان زفر عم هدبة يُعزى إلى رجل من بني رقاش، فقام أدرع فرجز به فقال:

أدوا إلينا زفرا نعرف منه النظرا وعينه والأثرا

فغضب رهط هدبة، وادعوا حداً على بني رقاش، فتداعوا إلى السلطان، ثم اصطلحوا على أن يُدفع إليهم أدرع، فلما خلوا به ضربوه الحد ضربا مبرحاً، فراح بنو رقاش وقد أضمروا الحرب وغضبوا، فقال عبدالرحمن بن زيد:

ألا أبلغ أبا جبر رسولا
فما بيني وبينكم عتابُ

ألا تعلم بأن القوم راحوا
عشية فارقوك وهم غضابُ

فأجابه الحجاج بن سلامة فقال:

إن كان ما لاقى ابن كنعاء مرغماً
رقاش فزاد الله رغماً سبالها

منعنا أخانا إذ ضربنا أخاكم

وتلك من الأعداء لا مثل مالها

وجعل هدبة وزيادة يتهاديان الأشعار، ويتفاخران، ويطلب كل واحد منهما العلو على صاحبه في شعره، فمن ذلك قول زيادة في قصيدة أولها:

أراك خليلاً قد عزمت التجنبا

وقطعت حاجات الفؤاد فأصحبا[١]

منها قوله:

وأنك كالناسي الخليل إذ دنت

به الدار والباكي إذا ما تغيبا

وقد أعذرتْ صرف الليالي بأهلها

وشحط النوى بيني وبينك مطلبا[٢]

فلا هي تألو ما نأت وتباعدت

ولا هو يألو ما دنا وتقربا

أطعتُ بها قول الوشاة فلا أرى الـ

وشاة انتهوا عنه ولا الدهرُ أعتبا

---

(١) أصحبت: ذل وانقاد

(٢) أعذرت مطلبا: أي بالغت في المطلب ولم تقصر.

فهلا صرَمتنا والحبال متينة
أميـــمـــة إنْ واش وشى وتكذّبا

إذا خفت شك الأمر فارم بعزمة
غيابته يركب بك الدهر مركبا

وإن وجهةٌ سدت عليك فروجها
فإنك لاقٍ لا محالة مذهبا

يُلام رجالٌ قبل تجريب غيبهم
وكيف يُلام المرء حتى يُجربا

وإني لمعـــراضٌ قليلٌ تعـــرضي
لوجه امرئ يوماً إذا ما تجنبا

قليل عثاري حين أذعر، ساكنٌ
جناني إذا ما الحرب هرت لتكلبا

بحسبك ما يأتيك فاجمع لنازل
قـــــراه ونوبه إذا مـــــا تنؤبا

ولا تنتجع شراً إذا حيل دونه
بسترٍ وهب أسبابه ما تهيبا

أنا ابن رقاش وابن ثعلبة الذي
بنى هادياً يعلو الهوادي أغلبا

بنى العز بنياناً ليومي فماصعوا[1]
بأسيافهم عنه فأصبح مُصعبا

(١) ماصعوا: قاتلوا وجالدوا.

obeikandl.com

فما إن ترى في الناس أماً كأمنا
ولا كـأبينا حين ننسـبـه أبا

أتمّ وأنمى بالبنين إلى العُـلا
وأكرم منا في المناصب منصِبا

مَلَكْنا ولم نُمَلك وقُدْنا ولم نُقَد
كأن لنا حقاً على الناس تُرتبا[1]

بآية أنا لا نرى مـتـوجـا
من الناس يعلونا إذ مـا تعصبا

ولا ملكاً إلا أتقـانا بملكه
ولا سُوقة إلا على الخرج أتعبا

ملكنا ملوكاً واستبحنا حماهم
وكنا لهم في الجاهلية موكبا

ندامى وأردافـاً فلم تر سـوقـةً
توازننا فـاسـأل إياداً وتغلبا

فأجابه هدبة، فقال:

تذكر شجواً من أميمة منصبا
تليداً ومنتاباً من الشوق مجلبا

(١) ترتب: ثابت لازم.

تذكر حباً كان في ميعة الصبا
ووجدا بها بعد المشيب معتبا

إذا كاد ينساها الفؤاد ذكرتها
فيالك ما عنّى الفؤاد وعذبا

غدا في هواها مُستكينا كأنه
خليعُ قداحٍ لم يجد متنشبا

وقد طال ما عُلقت ليلى مغمراً[١]
وليداً إلى أن صار رأسك أشيبا

رأيتك في ليلي كذي الداء لم يجد
طبيباً يداوي ما به فتطببا

فلما اشتفى ما به كر طِبُه
على نفسه من طول ما كان جربا

فلم يزل هدبة يطلب غرة زيادة حتى أصابها فبيَّته فقتله، ثم هرب مخافة السلطان، وعلى المدينة يومئذ سعيد بن العاص، فأرسل إلى عم هدبة وأهله فحبسهم بالمدينة، فلما بلغ هدبة ذلك أقبل حتى أمكن من نفسه، وتخلص عمه وأهله، فلم يزل محبوساً حتى ذهب عبدالرحمن بن زيد أخو زيادة إلى معاوية، فأورد كتابه إلى سعيد بأن يقيد منه إذا قامت البينة، فأقامها، فمشت قبيلة هدبة إلى عبدالرحمن فسألوه قبول الدية فامتنع وقال:

(١) أي غير حدث.

أنختم علينا كلكل الحرب مرة
فنحن منيخوها عليكم بككلِ

فلا يدعُني قومي لزيد بن مالك
لئن لم أعجل ضربة أو أعجلِ

أبعد الذي بالنعف نعفُ كويكب
رهينة رمس ذى تراب وجندلِ

كريم أصابته ديات كثيرة
فلم يدرِ حتى حين من كل مدخلِ

أُذكر بالبقيا على من أصابني
وبقياي إني جاهدٌ غير مؤتلي

فكره سعيد الحكم بينهم، وأرسل بهم جميعاً إلى معاوية -رضي الله عنه- بالشام، فلما صاروا بين يدي معاوية قال عبدالرحمن أخو زيادة له: يا أمير المؤمنين أشكو إليك مظلمتي، وقتل أخي، وترويع نسوتي.

فقال له معاوية: يا هدبة قل.

فقال: إن هذا رجل سجَّاعة، فإن شئت أن أقص عليك قصتنا كلاماً أو شعراً فعلت.

قال: لا بل شعراً.

فقال: هدبة هذه القصيدة ارتجالاً.

ألا يا لقـــومي للنوائب والدهر

وللمرء يردي نفسه وهو لا يدري

وللأرض كم من صالح قد تأكمت

عليـه فـوارثه بلمـاعـة قـفـر

فـلا تتـقي ذا هيـبـةٍ لجـلاله

ولا ذا ضيـاع هن يتـركن للفـقـر

حتى قال:

رمـينـا فـرامـينا فـصـادف رمـينا

منايا رجـال في كـتـاب وفي قـدر

وأنت أمـيـر المؤمنين فـمـا لنا

وراءك من معدى ولا عنك من قصر

فإن تك في أموالنا لم نضق بها

ذراعـاً وإن صبرٌ فنصبر للصبـر

فقال له معاوية: أراك قد أقررت بقتل صاحبهم، ثم قال لعبدالرحمن: هل لزيادة ولد؟ قال: نعم، المسور، وهو غلام صغير لم يبلغ، وأنا عمه ووليّ دم أبيه.

فقال: إنك لا تؤمن على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق، والمسور أحق بدم أبيه، فرده إلى المدينة، فحُبس هدبة ثلاث سنين، حتى بلغ المسور.

فقالت أم هدبة فيه لما شخص إلى المدينة فحبس بها:

أيا إخـوتي أهل المدينة أكـرمـوا
أسـيـركم إن الأسـيـر كـريم

فـرب كـريم قـد قـراه وضـافـه
ورب أمـــــورٍ كلـهـن عـظـيـم

عصا جُلُّها يوماً عليه فراضه
من القـوم عـيّـافٌ أشم حليمُ

فأرسل هدبة العشيرة إلى عبدالرحمن مرة ثانية في أول سنة فكلموه، فاستمع منهم ثم قال:

أبعـد الذي بالنعف نعف كويكب
رهـيـنـة رمـس ذي تـرابٍ وجـنـدلِ

أُذَكَّرُ بالبـقـيـا على من أصـابني
وبقـيـاي أني جاهدٌ غيـر مـؤتلي

فرجعوا إلى هدبة بالأبيات فقال لم يؤيسني بعدُ، فلما كانت السنة الثالثة بلغ المسور، فأرسل هدبة إلى عبدالرحمن من كلمه فأنصت حتى فرغوا، ثم قام مغضباً وأنشأ يقول:

سـأكـذبُ أقـوامـاً يقـولون إنـني
ســآخــذ مــالاً من دم أنا ثائره

ونهض، فرجعوا إلى هدبة فأخبروه الخبر فقال: الآن أيست منه.

وذهب عبدالرحمن بالمسور، وقد بلغ، إلى والي المدينة، وهو سعيد بن العاص، وقيل مروان بن الحكم، فأخرج هدبة للقتل فلما مضي به، التفت فرأى امرأته، وكانت من أجمل النساء، فقال:

أقلي عليَّ اللوم يا أم بوزعا
ولا تجزعي مما أصاب فأوجعا

فلا تنكحي إن فرق الدهر بيننا
أغم القفا والوجه ليس بأنزعا[١]

كليلاً سوى ما كان من حد ضرسه
أكيبد مبطان العشيات أروعا[٢]

ضروباً بلحييه على عظم زوره
إذا الناس هشوا للفعال تقنعا

وحلي بذي أكرومة وحمية
وصبرٍ إذا ما الدهر عض فأسرعا

فجعل الناس يتعرضون له ويخبرون صبره: ويستنشدونه، فأدركه عبدالرحمن بن حسان، فقال له: يا هدبة، أتأمرني أن أتزوج هذه بعدك، يعني زوجته، وهي تمشي خلفه فقال: نعم، إن كنت من شرطها، قال: وما شرطها؟ قال: قد قلت في ذلك:

---

(١) الأنزع: من انحسر شعره عن جانبي جبهته.
(٢) أكيبد: تصغير أكبد، وهو من يشكو من وجع كبده، والأروع هنا الذي يسرع إليه الارتياع والخوف، ومبطان العشيات الضخم البطن من كثرة الأكل في العشية.

فلا تنكحي إن فرق الدهر بيننا

أغم القفا والوجه ليس بأنزعا

وكوني حبيساً أو لأروع ماجدٍ

إذا ضن أعشاش الرجال تبرعا[١]

فمالت زوجته إلى جزار وأخذت شفرته، فجدعت بها أنفها، وجاءته تدمي مجدوعة فقالت: أتخاف أن يكون بعد هذا نكاح؟.

فرسف في قيوده وقال: الآن طاب الموت.

ثم مضى يرسف في قيوده، فإذا هو بأبويه بأسوأ حال، فأقبل عليهما قائلاً:

أبلياني اليوم صبراً منكما

إن حزناً إن بدا بادئ شر

لا أراني اليوم إلا ميتاً

إن بعد الموت دار المستقر

اصبرا اليوم فإني صابر

كل حي لقضاءٍ وقدرِ

فسأل سعيد بن العاص أخا زيادة أن يقبل الدية عنه، وقال له: أعطيك ما لم يُعطه أحد من العرب، أعطيك مائة ناقة حمراء

(١) الأروع هنا من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته، وقيل: الشهم الذكي الفؤاد. والأعشاش جمع عش وهو الطويل القليل اللحم، أو دقيق عظام اليد والرجل أو جمع العُشّ وهو عُش الطائر وشبههم.

ليس فيها جداء[١] ولا ذات داء، فقال له: والله لو نقبت لي قُبتك هذه، ثم ملأتها ذهباً، ما رضيت بها من دم هذا الأجدع، فلم يزل سعيد يسأله ويعرض عليه فيأبى، ثم قال له: والله لو أردتُ قبول الديه لمنعني قوله:

لتجد عن بأيدينا أنوفكمُ
ويذهب القتلُ فما بيننا هدرا

فدفعه حينئذ ليقتله بأخيه.

فلما قُرِّب ليُقتل استأذن أن يصلي ركعتين، فأُذن له، فصلاهما وخفف، ثم التفت إلى من حضر وقال: لولا أن يُظن بي الجزع لأطلتهما، فقد كنتُ محتاجاً لإطالتهما، ثم أنشأ يقول:

فإن تقتلوني في الحديد فإنني
قتلتُ أخاكم مطلقاً لم يُقَيَّدا!

فقال عبدالرحمن أخو زيادة : والله لا أقتله إلا مُطلقاً من وثاقه، فأُطلق، فقام إليه وهز السيف ثم قال:

قد علمت نفسي وأنت تعلمه
لأقتلن اليوم من لا أرحمهْ

❀ ❀ ❀

(١) الجداء: الناقة الذاهبة اللبن من عيب.